

مقال: موقف ابن حزم من الفن والجمال

المصدر: مجلة الهلال

بقلم: الطاهر أحمد مكي

رقم العدد: 6

تاريخ الإصدار: 1 يونيو 1988

إعداد: موقع الشيخ عبد الحق التركماني

<https://www.turkmani.com>



مَوْقِفُ ابْنِ حَزْمٍ

من الفن والجمال!

بقلم: د. الطاهر أحمد مكي

اعترف بدءاً اننى عرفته عرضاً على ارض وطنه ، فى اسبانيا نفسها ..

ذات يوم من خريف عام ١٩٥٧ اخذت طريقى الى مدرسة الدراسات العربية فى مدريد ، فى شارع جانبي يتفرع من شارع سان برناردو فى الحى العتيق من المدينة ، حيث كانت الجامعة قديماً ، وتشغل الطابق الثالث من بيت ينتمى الى اول هذا القرن على التاكيد .

البناء متسع ، قديم ومتواضع ، يعبق جلالاً ووقاراً ، وترك فى اركانه اصداء التاريخ ، وتشغل الكتب الى جانب المكان المخصص لها ، جوانب عديدة فيه ، ويتردد عليه المتخصصون فى الدراسات العربية من الاسبان ، يعملون فيه لوطنهم اولاً ، ولانفسهم ثانياً ، وكثهم يعملون فى الجامعة او فى مؤسسات ثقافية اخرى ، ويتقاضون مقابل هذا العمل مكافآت متواضعة ، ومع ذلك لا يتخلفون عن مواعيدهم ، فهم يردونها من السادسة مساء حتى التاسعة ، يقابلون الطلاب بموعد مسبق ، ويتبادلون الراى ، ويبحثون فى تاريخ وطنهم ايام ان كان عربياً مسلماً

قبل ذلك كله المستشرق المتمكن من التراث الاندلسى ، والاديب الاسبانى صاحب الاسلوب الفخيم ، يذكر قراءه بامجاد الاسبانية قديماً فى البلاغة والبيان .
وفى الساعة المحددة دخلت مكتبه ..

كنت على موعد مع " إميليو غرسية غومث " استاذ اللغة العربية فى كلية الآداب فى الجامعة المركزية ، ورئيس قسم اللغة العربية فيها ، ومدير مدرسة الدراسات العربية ، ورئيس تحرير مجلة الاندلس الشهيرة ،



اعرف من مصادر الادب العربي ،
 ووجدتني انا الحاصل على الليسانس
 الممتازة بمرتبة الشرف ، وظللت اعد
 نفسي عاما لهذه البعثة ، في منتهى
 الجهل ، وان ما يسألني عنه اعرفه للمرة
 الاولى .

ومن بين ما سألني عنه : هل قرأت
 كتاب طوق الحمامة لابن حزم ؟

وكان ردني بالنفي ..
 ولم يدعش ولم ينفعل ، فقد كان على
 التأكيد وإعيا بمنهجنا في الدرس ، اذ
 أمضى في بدء حياته عامين في القاهرة ،
 ومع ذلك كان شديد الرضا ، لأنه يراهم
 أفضل الطلاب العرب الذين درسوا عليه ،
 تمكنا من مواهبهم وجدية في التحصيل ،
 واستقامة في العمل ، واتفقنا على قائمة
 المصادر الأندلسية التي سوف ادرسها ،
 ثم أعود لالتقاء بعد عام .

● مع ابن حزم

لم أكن سمعت قبل ذلك بهذا المفكر

الحجرة نظيفة للغاية ، وإكبتها بسيطة
 متواضعة ، لا تترف ولا فخخة ، لا سجاد
 ولا كراس مبطنة ، وإنما مكتب متواضع
 يجلس إليه ، ودواليب حوله مليئة بالكتب ،
 وكريسيان عاديان أمامه يجلس عليهما
 نواره ، وفي يده قلم رصاص يكتب به ،
 وأوراق أمامه يسجل فيها ، ومصادر
 يستشيرها .

وتأملته كلاً في لحظة ، وفارقت بين
 ما سمعت عنه وما تراه عيناى واقعا فوجدته
 تحيقا قصيرا وثقا من نفسه ، تركت
 القراءة في عينيه أثرها واضحا ، وإن ظل
 بريقهما متوهجا .. يشعان نكاء وعمقا ،
 هادىء الحديث ، خفيض الصوت ، وقدرته
 على التحدث بالعربية ضعيفة ، فهو ينطق
 الكلمات مفردة ، ويعسر عليه أن ينطق
 جملة كاملة دفعة واحدة ، وهو القادر على
 فهم أعقد النصوص ، وترجمة أدق
 الأفكار ، وإيجاد المعادل الاسباني
 لاصعب صور العربية .

ولم تكن اسبانيتي بشيء بعد .
 ومع ذلك تفاهمنا ومضى يختبرني فيما

مَوْثِقُ ابْنِ حَزْمٍ

من الفن والجمال !

المطبعة ، وافلتت الدراسات الاندلسية من قبضة التعصب في اسبانيا ، واستردت القاهرة قيادتها الثقافية للعالم العربي ، فأخذ يعود الى سيرته الاولى أيام ان كان حيا ، وبدأت تتقاسمه القاب جليلة وكريمة . احسن شاعر ، واحسن فيلسوف ، واحسن متكلم ، يهابه الفقهاء ، ويجله رجال الأدب ، ويثق فيه علماء البلاغة ، ويحترمه المفكرون .
كان احد اعظم عمالقة الفكر الانساني على امتداد تاريخه الطويل !

● عقلي المنهج

كان ابن حزم فقيها مجادلا ، ولكنه يتقيد في حوارهِ بمقاييس عقلية لا يخرج عنها ، ولا يدع خصمه في الحوار والمنافرة يفلت منها ، ويرى أن ثمة بدهييات تعلمها كل نفس سليمة من غير تعلم ، وتؤمن بها من غير تلقين ، حتى الطفل يدركها ويستنكر من يقول بغيرها ، ويذكر أمثلة لهذه البدهييات ، كالعلم بأن الجزء اقل من الكل ، وأن الضدين لا يجتمعان ، والجسم الواحد لا يكون في مكانين ، وجسمان لا يشغلان حيزا واحدا ، وأن الخطأ في البدهييات يجيء من فساد الفكر وضلاله في ربط سلسلة المقدمات بما يتصل بها من البدهييات ، وينشأ ذلك الضلال عن آفة من الهوى أو تحكم الشهوة ، أو التعصب لفكرة معينة ، فيكون من ذلك آفة تعترى الفكر فتضله وتوقعه في الخطأ .

الاندلسي العظيم الا في مناسبة بعيدة ، جاء ذكره عرضا ، وأنا صبي بعد ، فقد كان الحوار يدور حوله ، لأنه الف كتابا في الحب والمحبين ، نشره مستشرق روسي في ليدن عام ١٩١٤ ، ثم أعادت نشره مكتبة في دمشق عام ١٩٣٠ .. واذا بالفقهاء في مصر والشام يثورون ، ويعلمون أن الكتاب مدسوس على ابن حزم ، ومثله لا يمكن أن يكتب عن الحب مثل هذا الكلام .

وها انذا اجد نفسي امام ابن حزم وجها لوجه ، ادرسه واعجب بشخصه ، ويفتغني فكره ، فقد كان نائرا متمردا في شيببته الادبية ، وفي شخصيته العلمية ، وحتى آخر رمق من حياته ، مع تغاوت قليل في الضلال ، يواثم كل فترة من حياته ، وقليلون سبقوه في افكاره ، واقل منهم أولئك الذين ساروا من بعده على طريقته .

لقد حاول معظم الدارسين على أيامه ، وبعدها ، أن يرسل به الى زوايا النسيان ، لأنه هاجم الجميع ، ويعنف كالعادة ، المسلمين والمسيحيين واليهود ، واستطاع هؤلاء أن يردوا له الصاع صاعين حين مضى الى رحاب الله ، وبدأ عصر الترجمة في الاندلس المسيحي ، فلم تعرفه أوروبا في تلك الفترة ، ولم يصبح في مستوى علماء دونه قامة ، فحفت اسمه ، وتلاشت سيرته ، وظل مابقي من مؤلفاته في مخطوطات نادرة تحت الارض ، لا يعرفها إلا عدد قليل للغاية . وظل كذلك إلى أن عرف العالم العربي

وقد ينشأ الخطأ من ذات العقل لآفة اعترته ، أو لضعف طبيعي فيه ، لا يستطيع معه أن يرد الأمور إلى أصولها ، أو جمود عند فكرة معينة ، وعلى طالب الحقيقة أن يختير قواه ، فلا يخوض فيما لا يستطيعه وكل ميسر لما خلق له .

وكان يستخدم المنهج العقلي في بحوثه الدينية التي لا يعتمد فيها على نص من القرآن أو السنة ، وفي مناقشة غير المسلمين والفلاسفة والدراسات المتصلة بالأخلاق وأحوال النفوس ، والفرق الإسلامية المختلفة التي تعتمد على العقل في جدلها كالمعتزلة والأشاعرة وغيرهم . ويضيف إلى المنهج العقلي في الدراسات الخلقية تجاربه الخاصة المعينة على الاستقراء ، ويتجلى ذلك واضحا في كتابيه : « طوق الحمامة » والأخلاق والسير في مداواة النفوس .

● منهجه في الدين والحياة

كان ابن حزم يعتمد على العقل في اثبات التوحيد وصدق النبوة ووجه الإعجاز في القرآن ، ويمنع التقليد في دين الله تعالى ، ويقول : لا يحل لأحد أن يقلد أحدا لا حيا ولا ميتا ، وكل أحد له من الاجتهاد حسب طاقته ، فمن سأل عن دينه فليسال عن أعلم أهل موضعه بالدين ، فإذا افتاه قال له : هكذا قال الله عز وجل ؟ فإذا قال له : نعم ، أخذ بذلك وعمل به أبدا .. وإن قال له : هذا رأيي ، أو هذا قياس ، أو هذا قول فلان ، وذكر له صاحبا أو تابعا أو فقيها قديما أو حديثا ، أو سكت أو انتهره أو قال : لا أدري ، فلا يحل له أن يأخذ بقوله ، ولكنه يسأل غيره ، ومن

أدعى وجوب تقليد العاصي للعفتى فقد أدعى الباطل ، وقال قولا لم يأت به قط نص قرآن ولا سنة ولا إجماع ولا قياس ، وما كان هكذا فهو باطل ، لأنه قول بلا دليل .

ويقرر صراحة أن التقليد حرام ، ولا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان ، ولا يجوز تقليد أحد ، لامن الصحابة ولا من غيرهم ، لامن الأحياء ولا من الأموات إلا إذا كان مدعوما بالكتاب والسنة أو الإجماع القائم على نص منهما ، أو الدليل المشتق من هذه الأمور الثلاثة .

ولا رأى في الدين ، فليس لأحد أن يجتهد برأيه ، ويدعى أن ذلك حكم الله تعالى ، وليس لأحد أن يتحدث عن الله غير رسول من عند الله ، ومن قال برأيه فهو كاذب مفتر على الله ، والحرام بين والحلال بين ، وما ليس منهما فهو مباح .

وهو يدعو إلى مسالمة الناس ، والانتناس بهم ، وعدم معارضتهم فيما لا يضر في الدين أو الدنيا : « إياك ومخالفة الجلبيس ومعارضة أهل زمانك فيما لا يضر في دينك أو أخراك وإن قل ، فإنك لا تستفيد بذلك إلا الأذى والمعاناة والعداوة ، وربما أدى ذلك إلى الضرر العظيم دون منفعة أصلا .

● عاشق الجمال

هذا الفقيه العظيم المجتهد الذي نافع عن الإسلام أمام كل أعدائه ، وأقام مذهبا اتسم بالتشدد والعقلانية معا ، وكان مسلما تقيا عفا ، أحب الجمال وفتن به ، في شتى صوره ، امرأة ، أو شعرا ، أو

موقف ابن حزم من الفن والجمال!

وعنده تطيش الالباب ، وتعزب الافهام^(٣) .
« ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت
محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة
محب لمحبيوه ، ورأيت تمكن المتغلبين
على الرؤساء وتحكم الوزراء ، وانبساط
مدبرى الدول ، فما رأيت أشد تبجحا ولا
أعظم سرورا بما هو فيه ، من محب ايقتن
ان قلب محبويه عنده ، ووثق بميله اليه ،
وصحة مودته له .

وحضرت مقام المعتذرين بين ايدى
السلطين ، ومواقف المتهمين بعظيم
الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت
أذل من موقف محب هيمان بين ايدى
محبوب غصان ، قد غمره السخط وغلب
عليه الجفاء .. ولقد امتحنت الأمرين ،
وكنت فى الحالة الأولى أشد من الحديد
وانفذ من السيف لا أجيب الى الدنية ولا
أساعد على الخضوع .. وفى الثانية أذل
من الرداء واليق من الفطن أبادر الى
أقصى غايات التذلل لو نفع ، وأغتمت
فرصة الخضوع لو نجح ، واتحلل
بلسانى ، وأغوص على دقائق المعانى
ببيانى ، وأقن القول فنونا ، وأتصدى لكل
ما يوجب الترضى^(٣) .

● عاشق الموسيقى

وإذا كان أبسط تعريف للجمال انه
مايجذب ويطرب ، ويبعث فينا اللذة
والاعجاب ، ويمتع السمع أو البصر ، أو
كليهما .. فإن ابن حزم لم يقف عند
الجمال مجسما فى المرأة ، وإنما احتقى

موسيقا أو طبيعة وتناول صراحة الجمال
الانسانى ووضع معالمه ، وفرق بين
جوانبه ، فحدد ماتعنيه الحلاوة والقوام ،
والروعة ، والحسن والملاحة ، وكان جمال
المرأة أول ما فتنه فى خطى شبابه الأولى ،
وأثمرت هذه العاطفه كتابه الرائع « طوق
الحمامة فى الألفة والألاف »^(١) وهو
دراسة عن الحب والمحبين ، لا تقف عند
حد التنظير ، إنما يقدم شواهد لما يقول
من مغامراته العاطفية ، ومن حياة رفاقه
وصحبه وشيوخه ، ويذكر الأسماء
والتواريخ والأمكنة ، ولم يصف اديب
روعة اللقاء بين عاشقين .. كما وصفها
ابن حزم عن خبرة يقول :

« ولقد جريت اللذات على تصرفها ،
وادركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنو
من السلطان ، ولا للمال المستفاد ، ولا
الوجود بعد العدم ، ولا الأوية بعد طول
الغيبه ، ولا الامن بعد الخوف ، ولا التبرج
على المال ، من الموقع فى النفس ، ما
للوصل لا تسيما بعد طول الامتناع ، وحلول
الهجى ، حين يتأجج عليه الجوى ، ويتوقد
لهيب الشوق ، وتتضرم نار الرجاء .

وما أصناف النبات بعد غب القطر ، ولا
اشراق الأزامير بعد إقلاع السحاب
الساريات فى الزمان السجسج ، ولا خريف
المياه المتخلله لأفانين النوار ، ولا تالق
القصور البيض قد أهدقت بها الرياض
الخضر ، بأحسن من وصل حبيب قد
رضيت أخلاقه ، وحمدت غرائزه ، وتقابلت
فى الحسن أوصافه ، وأنه لمعجز السنة
البلقاء ، ومقصر فيه بيان الفصحاء ،

ويستشهد الذين يحرمون الغناء بالآية
الفرانية : « ومن الناس من يشتري لهو
الحديث » ويفسرون اللهو بأنه الغناء ،
ولكن ابن حزم - ومع الحق في هذا -
يرى أن الآية نزلت في النضر بن
الحارث ، وهو أكبر عدو للرسول ، وكان
يدعو القرشين ليقص عليهم قصصا
يصرفهم عن الرسول والقرآن ، فهي
خاصة بقصصه ، ولا صلة لها بالغناء ، وقد
رفض الرسول أن يقبل من النضر الغديّة
بعد أسره في موقعة بدر ، وأمر به فقتل ،
فلا حجة في الآية للقائلين بالتحريم .

● وكان شاعرا

ومن يهز الجمال مشاعره لايقنع
بالمعنة ، وإنما يعبر عنها بلون من فن
القول ، يصبح بدوره جمالا يلذ سماعه ،
وكان ابن حزم ناثرا وشاعرا على السواء ،
وقال الشعر في سن فتية ، نفس المرحلة
التي تفتحت فيها عيناه على جمال المرأة ،
وخفق قلبه بحبها ، وكان شعره كثيرا ،
وجمعه أحد تلاميذه غير أن سيوانه هذا لم
يصلنا . ومع ذلك فإن جانباً لا بأس به
تضمنه كتاب « طوق الحمامة » وجله غزل
يصدر عن عاطفة رقيقة متدفقة ويعكس
صورة عالم دخل متوهج وشغاف ، رغم
أن الناسخ في النسخة الوهيدة التي
وصلتنا تصرف على « واه » فحنف أكثر
أشعارها وأبقى العيون منها تحسينا لما
وأظهارا لمعاسنها ، وتدسغبرا لحجمها ،
وتسهيلا لوجدان الدخاني الثرياً من
لشظها .

● عندما يتخلف شعوب

في لحظات نادرة من التاريخ . يقول

بالموسيقى ، ووصف لنا حنلا في بيتهم ،
وعزفت فيه فتاة جميلة كان يحبها على
العود ، وأنها كانت تحسن العود احسانا
جيذا ، وأخذته وسوته بخفر وخجل لا عهد
لى بمثله ، ثم اندفعت تقنى بأبيات الجباس
ابن الأحنف .. انى طربت الى شمس اذا
غربت .. فلعمري لكأن المضرب إنما يقع
على قلبي ، وما نسيت ذلك اليوم ، ولا
انساه الى يوم مفارقتى الدنيا .

فابن حزم كما ترى لم يكن يبيع
الموسيقى فحسب ، وإنما كان يطرب لها
ويعزفها الفنانون والفنانات في بيتهم ،
وكانت من المباحج الشائعة في الأندلس ،
ولا تقتصر على المحترفين ، وإنما يعتبرها
القوم لونا من الثقافة الرفيعة يتدرب عليها
الفتيان والفتيات ، كما يتدرب الأولون على
ركوب الخيل ويزهون به ، وتباهى البنات
بالتجمل والأناقة ولبس الفاتن من الثياب .
وفيما بعد .. وهو في قمة تضجعه العلمي ،
بدأ يقنن المذهب الظاهري ، فالف كتابه
« المحلى » ضمنه كل فقهه ، وتعرض فيه
للغناء والمزامير والعيان والمعارف
والطنابير ، وذكر أن يبيعها حلال ، ومن
كسر شيئا ضمنه ، وكذلك يبيع المغنيات
اذا كن من الاماء ، ويذكر أنه ليس رده
في هذا الرأي ، وإنما يلتقى معه الامام
ابوحنيفة في هذا الاتجاه ، ويرى أن
الذين حرموا بيعها لأن استخدامها حرام ،
احتجوا بأنار لاتصح ، أو يصح بعضنا ولا
حجة لهم فيها ، فما أوردوه من أحاديث
نهيية تحرم الغناء والموسيقى ضعيفة ،
وكند عدم صحته مما يجعلها غيرصالحة
للاستنهاذ أو بناء حكم شرعى عليها ،
يقول بعد أن أورد حجج القائلين
بالتحريم .. ل حجة لهم في ذلك كه .

مَوْقِفُ ابْنِ حَزْرَةَ

من الفن والجمال!

الطبقات ، ولكان اولاهم بذلك اهل الجاهلية ، ومن تشهد الامة عليه بالكفر ، ولوجب ان يكون كعب بن زهير وابن الزبيرى واضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من اصحابه بكما خرسا ، وبكاء مفحمين .. ولكن الامرين متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر .

ولايرد على الجمال وصف مبتذل او بارد او ساقط او قبيح ، لان مجرد وصف الشيء بهذه الصفات يخرج به عن حد الجمال ، وقد تجد فيه لمسة جميلة تستوقف نظركنا ، ولكن هذا الجانب يضيع في زحام القبح ، لان الجميل حقا لا تستطيع ان تعدد مزاياه لانها متصلة ، وتمثل كلا منسجما ، تجرى الحياة في كل خفصة وليس في هذا الجزء او ذلك فحسب .

ان الجمال ، خالصا دون قيد او شرط ، شيء صوفي علوي ، يجهل طبيعة عالمنا البشرى المسكين ، والاصفياء وحدهم هم الذين يستشعرونه ، ويسعدون ويفرقون فيه وينعمون ولم تفقد الكلمة الماثورة وهجها ابدا ..

ان الله جميل يحب الجمال ..
الجمال مرفيا او مسموعا او مقررءا

كوارث انسانية ، او لحظات تخلف مدمره ، او خلط في القيم ، او ازمات لا يعرفون لها ، فيمسكون بارقي ما عندهم ويحملونه عبء تخلفهم تلتقى بمن يرى ان حب الجمال في اى مظهره ضار ، لانه يثمل حواسنا ، وعلينا ان نستخدم كل قوانا لتحرير النفس البشرية مما يثيره فيها من اضطراب او هيام او استغراق ، وفي لحظات اخرى وللبراعث نفسها نجد من يرتضى الفن والجمال في نطاق قيود يحددها ، بان يكون عوننا على غاية تربوية او ان اللذة التي يحدثها تقود الى الحق والخير ، وان تكون ممارسته نافعة .

وهي آراء ياتي عليها ويسقطها من الذي يحدد النافع ولمن ؟ وما الحق والخير ، ومن الذي يحدد الجمال الذي يربى والجمال الذي يفسد ؟

ان الجمال مستقل عن العلم والاخلاق والمنفعة ، وهذا الصبدأ ليس حادثا في حياتنا فعند اكثر من القدماء قال القاضى على بن عبدالعزيز الجرجاني مابعدا بين الدين والشعر والشعر جمال وفن ، بالآلا يحكم على احدهما بالآخر يقول :

فلو كانت الديانة عارا على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب ان يمحى اسم ابي نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره اذا عدت

(١) تمت بتحقيق هذا الكتاب ، وصدرت طبعته الرابعة عن دار المعارف سنة ١٩٨٥ .

(٢) طوق الحمامة ، ص ٩٠ .

(٣) الطوق ص ١٠١ .